

التصوف الإسلامي دراسة مقارنة للمقصد والغاية الأمير عبد القادر الجزائري نموذجاً.

Islamic Sufism: An Approaching Study of Intent and Purpose: Prince Abdul Qadir Al-Jazaery as a Model.

جامعة تيارت/الجائر	فلسفة عربية وإسلامية	أنيسة عقابة - طالبة دكتوراه Anissa.ougaba@univ-tiaret.dz
جامعة تيارت/الجائر	فلسفة، علم النفس والأرطوفونيا	خديجة بلخير - أستاذة محاضرة أ Khadidja.belkheir@univ-tiaret.dz
DOI :		

الإرسال: 2023/03/31 القبول: 2024/12/15 النشر: 2024/12/20

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى تبيان المقصود بالتصوف الإسلامي عند جملة من المفسرين للمصطلح عموماً، والذي يظهر من خلال التحليلات الوجدانية، المؤيدة بأطوار روحانية يسلكها جملة من العارفين، الذين يجتازون مرحلة الزهد إلى مراحل تتدرج حتى تبلغ بهم مدارج السالكين والواصلين للتصوف. وقد تمت هذه الدراسة من خلال المنهج التحليلي والنقدي، من خلال تحليل المعنى الإصطلاحي لكلمة "تصوف" ونقد المغالطات في شرحها وتفسيرها.. وقد ركزنا محور البحث حوله عند الأمير عبد القادر الجزائري خصوصاً، كونه رائداً من رواد التصوف في الجزائر الذي كان لنا مثالا بصورة توضيحية للمقصود بالتصوف والغاية منه، إذ يعتبره مجاهدة النفس والتحلي بالفضائل وترك الرذائل، بغية التقرب إلى الله وعبادته، وارتأينا أنه يجبُ التعمق في البحث حول التصوف الاسلامي على وجه الخصوص دون سابقه (التصوف المسيحي واليهودي) كونه مرتبطاً بدين الإسلام المقدس.

الكلمات المفتاحية: تصوف، الأمير عبد القادر، عارفين، زهد، زاوية.

Abstract:

This research aims to clarify the meaning of Islamic mysticism for the interpreters of the term, which appears through emotional manifestations, supported by spiritual phases that the gnostics follow, who pass the stage of asceticism into gradual stages until they reach the runways of Sufism. This study was carried out through the analytical and critical approach, by analyzing the idiomatic meaning of the word "mysticism" and criticizing the errors in its explanation and interpretation. . We have focused the axis of the research on Prince Abd al-Qadir al-Jaza'iri in particular, as he is one of the pioneers of Sufism in Algeria, who was an example for us to clarify what is meant by Sufism and its purpose, as he considers it to be self-

striving and showing virtues and morals, to draw closer to God and worship Him, and we must delve into the research on Islamic Sufism in particular Without its predecessors (Christian and Jewish mysticism), it is linked to the sacred religion of Islam.

Keywords: Sufism, Prince Abdul Qadir, Arefin, asceticism, angle.

مقدمة:

إن ظاهرة التصوف هي من أهم المكونات التاريخية والدينية والحضارية للعالم الإسلامي، فقد انتشرت أفكاره ومبادئه وتأسست منها مدارس روحية وطرق صوفية التي كان لها تأثيرها الواضح في مختلف المجالات الثقافية والاجتماعية وحتى السياسية، وكانت للجزائر تأثيرها الواضح بالتصوف الإسلامي خاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. فقد ظهرت حركة علمية وثقافية صحبت نشاطا كبيرا للطرق الصوفية، فبرز العديد من الأعلام والشخصيات التي تبنت هذه المسالك، ولعل من أبرزها وأقواها نجد الأمير عبد القادر الجزائري.

وبما أن هناك فئة من الناس وهم المغيبون عن المعرفة الحقيقية، يعتقدون أن التصوف هو جملة من الطقوس والبدع الإعتقادية، والممارسات الشركية التي تتجلى في تقديس الأولياء والتمسح بقبورهم، والاعتقاد في قدراتهم الخارقة على تحقيق الكرامات ونيل الأمنيات والتقرب بهم إلى الله زلفى، سواء منهم الأحياء أو الأموات، فيكثر الإلتجاء إليهم في الملمات، وزيارتهم في المناسبات، وتقام لهم الولائم والمهرجانات.

لذا فنحن اليوم بصدد تصحيح وتوضيح المقصود من التصوف الإسلامي، والبحث في أهميته ودوره في تثبيت العقائد الدينية، ومحاولين الإجابة على إشكالية مفادها: ماهي تاريخية التصوف الإسلامي؟، وما غاية الأمير عبد القادر الجزائري من نهج سلك التصوف؟.

2. مفهوم التصوف:

أولاً قول " معروف الكرخي (ت 200 هـ) " التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق " (بوقرورة، 2004، صفحة 97).

وقيل عن العطار أنه نقل عن الجنيد أنه قال " الصوفي هو الذي سلم قلبه كقلب إبراهيم من حب الدنيا، وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله، وتسليمه تسليم إسماعيل، وحزنه حزن داود، وفقره فقر عيسى، وصبره صبر أيوب، وشوقه شوق موسى وقت

المناجاة، وإخلاصه إخلاص محمد " (العطار، 2009، صفحة 192). عليه الصلاة والسلام

وقد وردت في تذكرة الأولياء للعطار على لسان "الجنيد" أنه قال "التصوف ذكرٌ باجتماع، ووجدٌ باستماع، وعلمٌ باتباع، والتصوف من الاصطفاء بمعنى الإختيار، يعني الصوفي من اختار الله تعالى وترك ما سواه". (العطار، 2009، صفحة 447)

وكذلك عبّر سراج الطوسي عن معنى التصوف بقوله " الدخول في كل خلقٍ سني والخروج من كل خلقٍ دني". (الطوسي، 1960، صفحة 21)

وقد أورد هذه النسبة ابن الجوزي عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ ، قال سألت وليد بن القاسم: إلى أي شيء ينسب الصوفي ؟ فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة، انقطعوا إلى الله عز وجل ، وقطنوا الكعبة ، فمن تشبه بهم فهم الصوفية (الجوزي، 2007، صفحة 157).

ويقول الكناني " التصوف خُلُقٌ، فمن زاد عليه في الخلق زاد عليه في الصفاء"، وقال النوري ليس التصوف رسماً ولا علماً ولكنه خُلُقٌ لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلمٍ أو رسمٍ". (بسيوني، 1969، صفحة 21)

كما عرفه الهجويري في كتابه كشف المحجوب أنه "نزعة روحية تميل بالإنسان عن العالم المادي وترتفع به الى العالم الروحي، وهو بهذا المفهوم ظاهرة انسانية تنشأ في كلب بيئة دينية، وتنمو نتيجة لعوامل داخلية موجودة في تلك البيئة . (الهجويري، 1984، صفحة

(27

ويقول حاجي خليفة صاحب كشف الظنون عن التصوّف " هو علم يعرف به كيفية ترقّي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم والأمور العارضة لهم في درجاتهم بقدر الطاقة البشرية، وأما التعبير عن هذه الدرجات والمقامات، فغير ممكن لأن العبارات إنما وضعت للمعاني التي وصل إليها منهم أهل اللغات، وأما المعاني التي لا يصل إليها إلا غائب عن ذاته فضلاً عن قوى بدنه فليس بممكن أن يوضع لها ألفاظ فضلاً عن أن يعبر عنها بالألفاظ فكما أن المعقولات لا تدرك بالأوهام والموهومات لا تدرك بالخيالات والتخيالات لا تدرك بالحواس كذلك من شأنه أن يعاين بعين اليقين لا يمكن أن يدرك بعلم اليقين، الواجب على من يريد ذلك أن يجتهد في الوصول إليه بالعيان دون أن يطلبه بالبيان فإنه طور وراء طور العقل" ثم يقول:

علم التصوّف علم ليس يعرفه

إلا أخو فطنة بالحق معروف

وليس يعرفه مين ليس يشيمده

وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف (خليفة، 1982، صفحة 414)
كما قيل أن التصوف إنما هو نسق ذهني كان في مرحلة أو في مراحل ارتباطه أو إلتصاقه بالإسلام، تصوفاً صحيحاً. أما فيما بعد، فقد تحول –هكذا يقال- إلى حالة من الفساد والإفساد. (تيزيني، 2011، صفحة 28)

وقد مال بعض الصوفيين لصبغ نوع من الصفات الإلهية على أنفسهم وإلى إلتفاف المريدين حول شخصية الزعيم الروحي المختار، فكانت الحصيلة ازدهاراً عظيماً لطرق الدراويش ومذاهبهم. إن ظهور زعيم الدراويش الصوفي، أو كما يسمى شيخ الطريقة، هذا الذي يدعي أن الذات الإلهية قد حلت فيه، وأنه صار يجسدها بصورة حية، ملموسة والذي كان يعذب أتباعه ومريديه بقوة أرائده، عذاباً فظاً قاسياً، ويجعل منهم دمي طائعة، وذلك بإستخدامه وسائل إرهاب نفسي مأكرة، وبإستخدامه في بعض الحالات الخدع والشعوذات، نعم إن ظهور مثل هذه الإتجاهات هو دون شك ظاهرة من أكثر الظواهر اشمئزازاً في تاريخ الأديان. (آندريه، 2003، صفحة 15)

فقد شاع عن الصوفية على وجه العموم أنهم قوم قعدوا عن الكسب والإحتراف، وركنوا إلى التواكل، واستهلوا حياة الكسل والخمول، ولم يكتفوا بأن يكونوا عالة على المجتمع، بل أسهموا في تخلفه بما أشاعوه فيه من بدع إعتقادية وإنحرافات سلوكية، كانت نتاجاً لطغيان الدروشة والطريقة على مدى قرون متطاولة.

في حين أن حقيقة التصوف تكمن في كونه نمط من المجاهدة والرؤية النفسية، التي قد يرافقها سلوك عملي جسدي، في حين يُراد منها أن تستجيب لحاجات التصوف الروحية والنفسية والمجتمعية العامة. ومن الواضح أن التصوف الإسلامي لا يمكن حصره بتعريف جامع شامل، وأن المتصوفين لم يعرفوا التصوف إلا من خلال أحوالهم ومجاهداتهم التي عايشوها واختبروها، وقد بلغت هذه التعاريف من الكثرة العددية حتى قال أحد شيوخ التصوف أن التصوف قد "حد و رسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع كلها أن التصوف صدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه".

يقول عبد القادر الجيلاني (ت.561هـ) أن التصوف مشتقة من الصفاء أو من لبس الصوف، وهذا شيء لا يعي بتغير الخرق وتصغير الوجوه وجمع الاكتاف ولقلقة الألسن بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع وتسبيح وتهليل، إنما يعي لقلقة الألسن بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع والتسبيح وتهليل، إنما يعي بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا وإخراج الخلق من القلوب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل (الجنابي، 2006، صفحة 10).

1.2 نشأة التصوف: نشأ التصوف الإسلامي نشأة إسلامية، فقد ظهرت بذوره الأولى في نزاعات الزهد التي سادت العالم الإسلامي في القرن الأول هجري، وكان قوامه الإنصراف عن الدنيا ومتاعها والعناية بأمور الدين ومراعاة أمور الشريعة، وكانت غايته التي يتطلع (الهجويري، 1984، إليها العباد الزهاد هي الظفر برضوان الله تعال والنجاة من عقابه. (صفحة 28)

وقد انقضى القرن الأول للإسلام وانقضى معه عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه رضي الله عنهم، ذلك العهد الذي ظهر فيه الإسلام بتعاليمه السامية ومثله العليا، فكان الإقبال عليه والتمسك بآدابه والتخلق بأخلاقه والسير على نهجه، وكان الزهد في الدنيا من أهم السمات الكثيرة من أتباعه والمؤمنين به، أمثال أبي ذرة الغفاري وسلمان الفارسي وغيرهما.

وحل القرن الثاني فعرف المجتمع الإسلامي تحولات كبيرة وشهد تغيرات سريعة في نمط معيشتة، وطريقة حياته التي لم تعد تشبه تلك التي كان عليها في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ويرجع العلماء سبب ذلك إلى الفتوحات الإسلامية وإختلاط المسلمين بغيرهم عن الأمم والشعوب من مختلف الأجناس والأديان، فأقبلوا على الحياة الجديدة وما تزخر به من أنواع البذخ والترف وأصناف النعيم والرفاهية، وجنح الكثير منهم إلى مخالطة ما فيها من متع ولذات، والتمتع بمختلف ألوان الشهوات فكان الإنحراف عن تعاليم الإسلام و أخلاقه وتوجهاته. (العقبي، 2002، صفحة 9)

فحين ساد اللهو والمجون وكثرت الرذائل بين الأمة الإسلامية والمسلمين، كان لابد للصالحين من إتخاذ طريق صحيح والتفرد به لعبادة الله و الإبتعاد عما لحق الأمة من غمّة وظلمة، فكان التصوف نهج كل عابد تقيّ وارع.

أما الأصل في كلمة "صوفي" وتصوف فإنها كلمة مستحدثة في الملة الإسلامية، وأن البغداديين هم الذين إستحدثوها، ولم يشذ عن هذا الإجتماع فيما نعم إلا أبو نصر سراج الطوسي صاحب كتاب اللمع، الذي يذهب لإعتبار أن المصطلح أقدم من ذلك، وقد إستدل القائلون أن إسم "صوفي" مستحدث لأنه لم يكن من الألقاب التي أطلقت على الصحابة في عهد الرسول، فإنه لم يميزهم عن غيرهم إلا صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم. وكذلك لم يتسنى أهل الجيل الثاني إلا بإسم "التابعين"، وذلك لأن الإقبال على الدين كان عامين عند الناس، فلم تكن الحاجة إلى اسم خاص يمتاز به الرجل التقي. (العلا، 1963، صفحة 27)

وقد بلغ التصوف ذروته الدينية على أيدي رجال عظام سبقوا العلاج مثل ذي النون، المحاسين والجنيد ففي مائة وخمسين عاما، وعلى وجه التحديد الفترة الواقعة بين (750هـ_900هـ) حصل تطور يستدعي الإنتباه، فقد جرى استيعاب وهضم التدين التقشفي المبكر وما صاحبه من إحتقار صارم وغير مثمر للحياة واستكل بحب إلهي متوهج بهز النفس البشرية ويغمورها بالغبطة وعمق بالكشف عن الطريق التي ينبغي على النفس البشرية أن تسلكها حتى تتحد بالله وتتساوى معه من خلال تحويلها إلى صورته، هذا التطور الذي جمع ودون على يد الغزالي في كتابه العظيم (إحياء علوم الدين)، وبهذا كله بلغ التدين الإسلامي قمة لم يستطع أن يتجاوز ويتفوق عليها، كما لم يستطع وللأسف الحفاظ عليها. (أندريه، 2003، صفحة 19)

2.2 سبب التسمية بالصوفيين:

تعددت وتنوعت المعاجم الشارحة والمفسرة لأسباب التسمية بالتصوف، ولعل هذا التعدد فيها راجع لطبيعة المشارب التي يستقي منها كل صوفي، فيرجح بعضُ المفسرين أنه للباس الصوف الذي يرتديه المتصوفة على وجه العموم، والبعض الآخر ينسبها لنبته إتخذها المتصوفة والزهاد مصدر غذائهم، في حين يلجأ آخرون إلى شرح المصطلح ونسبه إلى درجة الصفو والصفوة التي يصلها الزهاد. وفيما يلي نعرض أهم الشارحين بطبيعة المصطلح بإيجاز:

قال صاحب الرسالة القشيرية في باب التصوف، قال الأستاذ الدقاق:الصفاء محمود بكل لسان ضده الكدورة، وهي مذمومة.

وعن أبي جحبة قال:خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متغير اللون، فقال: ذهب صفو الدنيا، وبقي الكدر، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم..

قال الأستاذ (يعني الدقاق) : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال: رجل صوفي، وللجماعة الصوفية، ومن يتوصل الى ذلك يقال له: متصوف، وللجماعة: المتصوفة.

وليس يشهد لهذا الإسم من حيث العربية، قياس ولا اشتقاق، والا ظهر فيه كاللقب.

فأما قول من قال: أنه من الصوف وتصوف، اذا لبس الصوف كما يقال: تقمص إذا لبس قميص، فذلك وجه..

ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

ومن قال: انهم منسوبون الى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة، لا تلي على نحو الصوفيين ومن قال: إنه من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، وقول من قال: إنه مشتق من الصفن فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى، فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف، ثم أن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ، وإستحقاق إشتقاق (حسن، 1990، صفحة 18).

وهناك من الأول أن "التصوف نسبة إلى صوفانة وهي بقلة تنبت في الصحراء، حيث دفع التقشف بعض الصوفية إلى الزهد في الطعام والإقتصار على نبات الصحراء" (العلا، 1963، صفحة 29).

أما حسب ما يراه سراج الطوسي (ت378هـ) فإنه "نسبة إلى اللباس لأن لبس الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء" (أبو نصر عبد الله، 1960، صفحة 40).

كما ورد عن سراج الطوسي أنه أورد في كتابه الذي يعد أقدم مرجع صوفي أنه قال "كان في الأصل صفوي، فإستثقل ذلك، فقليل صوفي، ويمثل ذلك نقل عن أبي الحسن الكناد: هو مأخوذ من الصفاء (الطوسي، 1960، صفحة 46).

ومن ذلك ما يقال إنه منسوب إلى شخص في الجاهلية اسمه صوفة، وهو الغوث بن مر، كانت أمه قد نذرت إن عاش لها ولد أن تهبه لبيت الله وتجعله ربيب الكعبة (الأصفهاني، 1938، الصفحات 17-18).

وهو نفس ما ذهب إليه عبد الغني: إذ قال فهؤلاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مرة، ويوضح علة تسميته بـ "صوفة" فيقول: جاءت صوفة من الصوف الذي علق برأس الغوث بوصفه ضحية، لأنه ما كان يعيش لأمه ولد فنذرت: لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة، ولتجعلنه ربيب الكعبة، ففعلت، فقليل له صوفة ولولده من بعده (قاسم، 1989-1991، صفحة 9)

3. مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر الجزائري:

قبل الغمار في الحديث عن نظرة الأمير للتصوف الإسلامي وموقفه منه لابد لنا من الحديث عن شخصية الأمير، كون أن تربيته والبيئة التي نشأ فيها كان لها نصيب من سلوكه لنهج التصوف.

1.3 مولد ونشأة الأمير عبد القادر الجزائري :

ولد الأمير عبد القادر الجزائري يوم الجمعة في الثالثة والعشرين من رجب، سنة إثنين وعشرين ومئتين ألف للهجر (1222) الموافق لشهر أيار سنة سبعة وثمانمائة وألف للميلاد (1807) أما مكان ولادته ففي قرية "القيطنة". (السيد، 1985، صفحة 32.33) وينتمي الأمير عبد القادر إلى أسرة عريقة تمتد سلسلتها إلى النسب النبوي وذلك استنادا لما هو مقرر في كثير من المصادر. حيث يذكر نسبه على النحو الآتي "هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن أحمد المشهور بإبن حدّه، وهي مرضعته بن محمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى إبن الحسين السبط ابن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم". (السيد، 1985، صفحة 29)

وما هو معروف لكل الدارسين لشخصية الأمير عبد القادر أنه إبن الزويا والطرق، فقد تتلمذ في بداية حياته العلمية على يد والده الشيخ "محي الدين" شيخ زاوية "القيطنة"، ففي الرابعة من عمره إلتحق بمدرسة والده في القيطنة عام (1227 هـ 1812 م)، والتي تقع في قرية على بعد 28 كم من مدينة معسكر. مقر أسرة الأمير عبد القادر، اختطها جده "مصطفى بن المختار" سنة 1206 هـ، فيها ولد الأمير وعرفت انذاك إشعاعا دينيا وثقافيا معتبرا بفضل زاويتها القادرية الشهيرة "زاوية القيطنة"، وقد هدمها بيجو في سبتمبر. م 1841 وهي اليوم بلدية تابعة لدائرة بوحنيفة ولاية معسكر (بناني، 2007، صفحة 48).

أصبح الأمير عبد القادر طالبا في إعداد طلبة الفقه، لما كان في الثانية عشر من عمره، إذ كان دؤوبا في حفظ القرآن ودرس الحديث وأصول الشريعة، وكان يتلقى مبادئ الفقه وأصوله عن والده عمدة المحققين، وعن غيره من علماء بلده.

بعد سنتين عندما أصبح في الرابعة عشر من عمره حصل على تسمية "الحافظ" ويعني ذلك أنه أصبح يستطيع ترتيل القرآن عن ظهر قلب في الجوامع والاحتفالات. (تشرشل، 2004، صفحة 39)

كما قرأ الفلك والمنطق، وقرأ اللاهوت والفلسفة في كتب حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وفي علمي التاريخ والجغرافيا، حيث اكتشف الأمير عبد القادر على يد معلمه أوطانا وثقافات وشعوبا وحضارات، وفي تاريخ المسعودي وابن خلدون أدرك الأمير الكثير من المعارف والفنون والموسيقى والميتافيزيقا والدين وسائر العلوم، وقوانين التطور والضعف في الدول والحضارات. (محمصاجي، 2007، صفحة 69)

اشتهر في السابع عشر من عمره بشدة الباس وقوة البدن والفروسية حتى كان يشار إليه بالبنان بين الفرسان لمهارته في ركوب الخيل واللعب على ظهورها فبرز بذلك على جميع أقرانه. وأقر له القاضي والداني من الفرسان أنه ابرع من قبض على عنان في بلاد الجزائر، اذا ركب وثب على ظهر جواده وثبا، وبقي إلى آخر أيامه يحب الخيل و يداعبها و يعنى بها، ومارس رياضة الصيد كذلك لكن لم تمنعه الرياضة عن العلم و الدراسة (بوعزيز، 1983)، (صفحة 150).

وقد تزوج الأمير عبد القادر وهو شاب يافع على الطريقة الإسلامية طبقا لنصوص القرآن الكريم، ففي سن الخامسة والعشرين تزوج ابنة عمه لالا خيرة وقد اتصفت بزرانة أخلاقها وجمالها البارئ، (تشرشل، 2004، صفحة 39) قد استطاع في هذه الفترة أن ينظم الشعر ويتعاطى قريضه، وهو دون العشرين من سنه. ولم يسبق له أن تعلم موازين الشعر ومقاييسه، ولا سبق له أن تلقى أصوله ومبادئه على أستاذ خبير في فن الشعر، فجمع بذلك بين السيف والقلم.

إن تلك التنشئة بأسسها الاجتماعية والثقافية والروحية، المتجذرة في تربة الزاوية قد خلقت في نفسه عاطفة الأخوة والمساواة، وهو ما سيظهر مع الزمن على صورة محبة ليس للقوم وبني الملة فحسب، ولكن للإنسانية جمعاء. (سليمان، 2004، صفحة 110)

كما أن التربية الدينية بوجه الخصوص، التي ترعرع عليها منذ الصغر، وشغفه الكبير بالمكانة المرموقة والموقرة التي وصل إليها والده الشيخ "محي دين" جعلت منه يسعى جاهدا ودون إخوته أن يرث مقام أبيه في العلم والدرجة الكبيرة من الوقار.

إن التصوف الذي سلكه الأمير عبد القادر الجزائري كان نتيجة لتأثره بأبيه وجده أولا، ثم تأثره برجال الدين والذكر الحكيم، ولعل من أولى الشخصيات الفاعلة والمؤثرة في حياة الأمير نجد الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، الذي كان له تأثير شديد في فكر وتصوف الأمير.

إن العلاقة التي تجمع الأمير عبد القادر بالشيخ الأكبر ابن عربي هي علاقة التلميذ بالأستاذ، وعلاقة الشيخ بالمريد، فقد تأثر الأمير بكتابات ابن عربي وآراءه وأفكاره، واعتبره قدوة حسنة له. وتظهر علاقة التأثير كذلك في التجلي العرفاني لابن عربي بسفر الأمير عبد القادر إلى سوريا (الشام)، واستقراره هناك، وزيارته لضريح الشيخ ابن عربي بدمشق، وهنا خصص وقت إقامته بشرح والتفسير والتحقيق في كتابات شيخه الروحي ابن عربي.

وقد إشتراك ابن عربي والأمير عبد القادر في فكرة تطهير الروح، وقد اعتمد ابن عربي في التطهير ثلاث مراتب وهي تزكية النفس، تصفية القلب، تجلية الروح، وللوصول إلى المرتبة الأولى لابد من التوبة وقهر الأهواء، وللوصول إلى المرتبة الثانية لابد من الخلوة والذكر وللوصول إلى الثالثة يكفي إيمان الصوفي، الذي يفتح روح الهامات علوية (بلاثيوس، 1965). ونجد صدى النظرية الوجودية لابن عربي في كتابات الأمير عبد القادر الجزائري من خلال جدلية " تكرار الكلمات المتناقضة".

إذ يقول الأمير:

أنا الحق أنا الخلق	أنا الرب أنا العبدُ
أنا كم أنا كيف	أنا وجد أنا فقد

أنا قرب أنا بعد
ألا فأعجبوا من ظاهر في بطونه
ومن باطن لا زال باد وظاهرا
هو الباطن هو الظاهر
أنا الحب أنا المحبوب والحب جملة
أنا العاشق والمعشوق سرا وإعلانا
فأنت هو الأنا وهو أنت فاذكر
منزها أبا تشبيهه بلا جنف

والداعي عند الأمير عبد القادر الجزائري إلى توظيف مثل هذه التناقضات هو
إبزار وحدة الوجود لله تعالى مقابل عباده ومحبتهم (الأمير، 2007، صفحة 118)

دوافع تصوف الأمير: تعددت وتنوعت دوافع تصوف الأمير منها :

نزعتة الإنسانية، إنتماؤه لنسب النبي صلى الله عليه وسلم، إيمانه بالقضاء
والقدر... بالإضافة إلى عناصر أخرى لعل من أهمها هي رحلته إلى الحج والذي نفعته كذلك
في سلك الطريقة القادرية كان لها تأثير بالغ في حياته، خاصة من الناحية الثقافية، إذ تأثر
بها وطبقها في سلوكاته ومعاملاته مع الآخر، وهي طريقة صوفية تنسب إلى مؤسسها الشيخ
عبد القادر الجيلاني، ثم سافر إلى دمشق، وقد أخذ الأمير في أثناء إقامته بدمشق الطريقة
النقشبندية عن العارف بالله الشيخ خالد النقشبندي السهروردي، وكان يكثر التردد إليه،
فسمع منه علوما شتى في التوحيد والتصوف. (السيد، 1985، صفحة 41)

2.3 التصوف من منظور الأمير:

إن مايمكن أن يتفق عليه كل الرائدین في مجال التصوف، هو أن هذا الأخير لايمكن إدراكه
إلا من خلال أن ترتبط الذات بخالقها عبادةً ظاهريّةً وباطنيّةً.

ويعتبر الأمير أن التصوف هو "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والإطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل الله" (الامير، 2009، صفحة 42).

والصوفيون في نظر الأمير، هم هؤلاء الذين عليهم أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم حاضرين مع الله تعالى، وقد أطلق الأمير على المتصوفين ألقابا عديدة فهم تارة من "أهل الله"، وطورا "العارفون"، ومرة "أهل الكشف والعرض" (الامير، 2009، صفحة 91). ويحاول الأمير من خلال تعريفه لأهل الله أن يصحح بعض المفاهيم الخاطئة، التي كانت ترسخ في اذهان بعض الناس في عصره عن التصوف والمتصوفين، فأهل الله الذين يعنهم الأمير بحديثه ليسوا " هؤلاء الذين يأكلون النار ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويدخلون التنور ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعرفهم العوام..لأن ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعبة ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم" (الامير، 2009، صفحة 178).

ويوجه الأمير تحذيره مرة ثانية من الذين تكون عباداتهم "مشوبة بأغراض نفسية، وحظوظ شهوانية" (الامير، 2009، صفحة 41). لأنه يعتبر التصوف عبادة خالصة لله لامصلحة منها لا لكسب المال ولا لنيل الشهرة كما يفعل الكثير. ويخلص الأمير برأيه الى اعتبار " الصوفية هم سادات طوائف المسلمين" (السيد، 1985، صفحة 115_116).

هذا هو مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر الجزائري، أنه جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة والعبادة الخالصة لله، والحضور الدائم مع معه جلى جلاله.

نظم الأمير عبد القادر عدة مقطوعات شعرية مثل:غيب، مسكين...لم يذق طعم الهوى، أنا الحب والمحبوب، الناعورة العاشقة، أي واد صبحوا، كما كنت، وحدة الوجود...، إلا أن ما إستوقفني منها هي قصيدة الظاهر والباطن، ولعل السبب وراء إنتقاءها أنها قصيدة مختلة الوزن والقوافي، وحقيقة الأمر انه كتبها في حالة غيبوبة صوفية لذلك لم تحمل نفس الوزن والقافية، وقد تركها كما هي دون أن يعدل فيها لتحمل الصدق في النقل.

أرددُ طرفي، في الرسوم فلا أرى

سوى من به كانت رسوماً وآثاراً

وأسألها عنه، فكلُّ أجابني

بأنه ما رآه يوما، ولا أدرى

فقلت لهم: هذا عجيبٌ فإنني

ما أبصرته، إلا بكم متظاهرا

عرفته منكم، ثم زاد في عرفاننا

بأنني إياه، ولكن منكرا

عجبت له كيف اختفى بظهوره؟

فعيني حجابهُ الظهور، ولا انفرا

ألا فاعجبوا، من ظاهرٍ في بطونه

ومن باطن، لا زال باد وظاهر (حقي، 1960، الصفحات 163-164)

3.3 غاية الأمير عبد القادر الجزائري من التصوف:

حين وجد الأمير نفسه ينتمي إلى نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، شاع فخرا وإعتازا بهذا النسب، وقد كتب قصائد وأشعار يتغنى من خلالها بهذا الإنتساب.

ولكونه فرد من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أراد أن يحقق إرادة الله عز وجل الظاهرة في الآية الكريمة ((إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)) إذ قال: تأمل هذه العناية الكبرى، والمنقبة العظمى، والمنزلة الزلفى، لأهل البيت النبوي ولفظة أهل تعمهم من أولهم الى آخر مولود منهم (الامير، 2009، صفحة 104)، حصر تعالى

ارادته فيهم بأنها لإذهاب الرجس عنهم، وتطهيرهم من الرجس، وهو الذنب، تطهيرا كاملا مؤكدا بالمصدر، وذلك بأن يكون كل ما يصدر منهم من المعاصي والمخالفات، مغفورة لهم، بل المغفرة متقدمة، لا بأنهم معصومون من المخالفات ولا انه تعالى اباح لهم ما حرمه على غيرهم من الامة، كلا و حاشا، بل معنى أن ذنوبهم تقع مغفورة لهم عناية الالهية.

هؤلاء هم أهل البيت النبوي، فهل هناك اهل فوقهم؟ يجيب عن ذلك بانه "إذا كانت عنايته تعالى بأهل البيت النبوي كما أخبر، فما ظنك بعنايته تعالى بأهل البيت الإلهي؟ وهم المعنيون بأهل القلوب" (الامير، 2009، صفحة 104).

ومن هم الأقرب أهل البيت النبوي ام أهل البيت الالهي؟ يري الأمير أن هذه العناية العظمى بأهل البيت النبوي "لم تحصل لهم إلا لقربهم من رسول الله اذا فالاقربون الى الله تعالى اولى بهذه العناية.

ولكن الخير كل الخير في ان يجتمع الانسان بين البيتين: النبوي والإلهي" اذ من كان من أهل البيت النبوي والالهي، فيخ يَحُ وكرامةً على كرامةٍ، ونورا على نورٍ، ومن كان من أهل البيت النبوي فقط، فهو دون من كان من أهل البيت الالهي".

وقد توصل الامير الى نتيجته مفادها انه "من كان من اهل البيت الإلهي فهو من أهل البيت النبوي...ولا ينعكس". (الامير، 2009، صفحة 105)

لذا كان الأمير يجاهد في سبيل الوصول الى هذا النسب الارادي الحقيقي، ليصبح من اهل البيت الالهي.

التصوف كان له دور ومكانة في تكوين شخصية الأمير عبد القادر، خاصة وأنه نشأ في بيئة دينية تسلك النهج الصوفي على الطريقة القادرية (نسبة الى مؤسسها عبد القادر الجيلاني) (إيتين، 1997، صفحة 6).

إن التصوف جعل من الأمير عبد القادر مجاهدا ورجل دين، وهنا لا نقصد بالجهد "الجهد السياسي"، فرغم انه من المعروف عن الامير قيامه بالفتوحات وإمارته لمناطق سياسية في الجزائر بغية تحرير أرضها الطاهرة. إلا أنه سعى و ركز على بَثِّ كلمة الحق فيها، ودفع الأذى وكف المنكر والمحرّمات عنها. ويؤكد ذلك ما قاله محمد بريم الخامس

الذي يرى في عبد القادر "مجاهدا"، وهي صفة دينية وليست سياسية أو عسكرية، ولعل ما يؤكد ذلك هو ما ينسب للأمير من مصطلحات مشحونة بمعاني دينية مثل "الكرامات" و"صحبة النصرة الإلهية"، ويدعم هذا الرأي الأمير عبد القادر نفسه عندما أقر أن ما يقوم به يدخل في باب الجهاد، إذ يقول "ليس المقصود بالجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود دفع الفرد والملا لكلمة الحق، ولو أمكن حصول ذلك من غير قتال. حُرِّم القتال" (الأمير، المقراض الحاد، 1989، صفحة 201).

كما تدرك الأبعاد الحضارية للتصوف عند الأمير في صورتها الشمولية والكلية من تصوره له كحقيقة جامعة بين العلم والعمل.

العلم هو معرفة النفس وأحوالها حتى يتحقق إخلاصها لله، يقول "إن كل من لم يسلك طريق قوم، ويتحقق بعلومهم حتى يعرف نفسه، لا يصح له إخلاص ولو كان أعبد الناس وأورعهم وأزهدهم وأشدهم هروبا من الخلق واختفاء وأكثرهم تدقيقا وبحثا في دسائس النفوس وخفايا العيوب، فإذا رحمه -الله تعالى- بمعرفة نفسه صح له الإخلاص وتصير الجنة والأجور والدرجات وجميع المخلوقات".

أما العمل فيتمثل في التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل (حمادي، 2015/2014، صفحة 107)

4. أهمية التصوف:

إن أهمية التَّصَوُّف تتجلى في التطبيق الفعلي للعبادات، سواء كانت جسدية أو روحانية، فالظاهر وحده لا يكفي، بل يجب أن يتحقق ظاهراً وباطناً، ولا يهمننا البحث في أصل الكلمة بقدر ما يهمننا معناها والغاية منها، فإطلاق المسميات لا يُهم بقدر ما تهمننا الممارسة، والرسول عليه السلام وصحابته أخذوا التَّصَوُّف بمعناه ولم يطلقوا على أنفسهم لفظ التَّصَوُّف، فروح الإسلام يرونها تتجسد فيهم، والتَّصَوُّف عند هو منهج للحياة الضرورية لكل مسلم، وبرنامج عمل شامل وضروري، يقود المسلم إلى الصفاء والطهارة والخشوع والنقاء، ويجنبه المعاصي وكل القبائح.

فالتصوّف هو حلقة الوصل بين جسد الإنسان وروحه، والصّوفيّة هم الذين لا يكتفون بالقول بل ينشدون الوصول إلى الكمال من خلال العمل أيضا، وعليه فإن المتصوّف يسعى إلى اختيار الأفضل وانتقاء الأجمل من الصفات، مما يعني أن المتصوف من وجهة نظره مختلف عن الإنسان العادي الذي قد يختار لنفسه الوسيلة الأسهل أو المذهب الذي لا يكلفه عناءً وجهداً، والتّصوّف هو القلب النابض للإسلام، وعندما ترك المسلمون هذا الجانب، أصابهم الضعف والخمول. (عيسى، 1970، صفحة 36)

وحاجة عالم اليوم إلى التّصوّف كبيرة ومُلحّة، وخاصة حاجته إلى تصوّف الأمير عبد القادر الذي مارس الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر، إن ما يحتاجه العالم الإسلاميّ اليوم تعاليم الجهاد النّفسيّ للأمير، كونها تتمحور على العمل الداخليّ المضنيّ، فحاجة المسلمين إلى هكذا تربية دينية واجبة.

يبقى التصوف حاجة إنسانية إلى تهذيب النفس وتربيتها، كما يعدّ ضرورة روحانية ونفسية لا يمكن لأي زمن القضاء عليه أو الانقاص من قيمته، كما أن تطور العلم وتقدمه لا يعني العزوف عليه بل يدعو للتمسك به أكثر فأكثر في ضلّ الشبهات التي تشوب العالم الإسلامي والمسلمين.

5. خاتمة:

إن ما يمكن أن نخلص به لهذا المقال، وختاما لما تقدم في بحثنا الوجيز في التصوف الإسلامي و المعنون بالتصوف الاسلامي دراسة مقارنة بين المقاصد و الغايات الامير عبد القادر الجزائري انموذج ، والذي تناولنا من خلاله بعض الشارحين لمصطلح التصوف الإسلامي والمقصود منه بمختلف التفسيرات المنسوبة إليه وإلى أصل التسمية التي لحقته ، وكذا مفهومه ومعناه عند الأمير عبد القادر الجزائري، وغايته من سلك هذا النهج توصلنا إلى النتائج التالية:

1. مصطلح التصوف مصطلح غامض إلى حد ما، يختلف موقف المفسرين والشارحين حول أصل التسمية، كل حسب تأويله.

2. تعدد المعنى لكلمة "التصوف" إن دل على شيء إنما يدل على قيمته وعلى أهمية الإنشغال بمعناه.
 3. رغم تعدد المفاهيم إلا أنها تصب جميعا في نهج واحد هو عبادة الله والإخلاص له ظاهرا وباطنا،
و التصوف عند الأمير هو مجاهدة النفس وعبادة الله تعالى دون إشراك.
 4. غاية الأمير من التصوف هو الإقتراب إلى الله لما يرضاه من حيث يرضاه، وليست غاية الأمير وحده في ذلك بل كل التصوفة والزهاد.
 5. التصوف ضروري في كل زمان ومكان ولا يمكن الإستغناء عنه، خاصة في هذه الظروف التي يعيشها العالم الإسلام من شبوهات وإنحلالات للقيم والأخلاق،
والتواءات الشرك حول الحق والمساس بالمقدسات الإسلامية
- قائمة المراجع :
- ابراهيم بسيوني. (1969). نشأة التصوف الإسلامي. القاهرة، مصر: دار المعارف.
- أبو فرج عبد الرحمان، ابن الجوزي. (2007). تلييس إبليس.. بيروت، لبنان: المكتبة العصرية صيدا.
- أبو نصر الله بن علي سراج الطوسي. (1960). اللمع. مصر: دار الكتاب الحديث..
- ابو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني. (1938). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
- أحمد علي حسن. (1990). التصوف جدلية وإنتماء. دمشق، سوريا: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- أسين بلاثيوس. (1965). ابن عربي حياته ومذهبه . (عبد الرحمان بدوي، المترجمون) مصر: مكتبة أنجلو المصرية..

السراج الطوسي أبو نصر عبدالله. (1960). اللمع في تاريخ التصوف. القاهرة، مصر:
المكتبة التوفيقية.

العفيفي أبو العلا. (1963). التصوف الثورة الروحية في الإسلام . القاهرة، مصر: دا
المعارف.

برونو إيتين. (1997). عبد القادر الجزائري. (ميشيل خوري، المترجمون) بيروت، لبنان: دار
عطية للنشر.

تور أندريه. (2003). التصوف الإسلامي. (عدنان عباس علي، المترجمون) كولونيا، ألمانيا:
منشورات الجمل.

حاجي خليفة. (1982). كشف الضنون عن أسامي الكتب والفنون. بيروت، لبنان: دار
الفكر العربي.

شارل هنري تشرشل. (2004). حياة الامير عبد القادر الجزائري. (ابو قاسم سعد الله،
المترجمون) ديوان المطبوعات الجزائرية.

صلاح مؤيد العقبي. (2002). الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. بيروت،
لبنان: دار البراق .

طيب تيزيني. (2011). التصوف العربي الإسلامي. دمشق، سوريا: منشورات الهيئة العامة
السورية للكتاب.

عبد الحكيم عبد الغني قاسم. (1989-1991). المذاهب الصوفية ومدارسها . القاهرة،
مصر: مكتبة مدبولي القاهرة.

عبد القادر الأمير. (1989). المقرض الحاد. الجزائر: دار الطاسيلي للنشر والتوزيع.

عبد القادر الامير. (2009). المواقف. رغبة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون الوطنية.

عبد القادر الأمير. (2007). ديوان الأمير عبد القادر الجزائري (المجلد ط3). الجزائر: منشورات تالة.

عبد القادر عيسى. (1970). حقائق عن التصوف. حلب، سوريا.

عشراتي سليمان. (2004). الأمير عبد القادر السياسي. دار الغرب للنشر والتوزيع.

عمر أحمد بوقرورة. (2004). دراسات في الشعر الجزائري المعاصر. الجزائر: دار الهدى.

عبي بن عثمان الهجويري. (1984). كشف المحجوب للهجويري. (أمين عبد المجيد بدوي، المترجمون) مصر: محمد توفيق عويضة.

فريد الدين العطار. (2009). تذكرة الأولياء. باكستان.

فؤاد صالح السيد. (1985). الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا. رغبة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

قدور محمصاحي. (2007). شباب الأمير عبد القادر. صفحة 69.

قيس كاظم الجنابي. (2006). التصوف الاسلامي في اتجاهاته الادبية. القاهرة، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

محمد الصغير بناني. (2007). مذكرات الأمير عبد القادر. الجزائر: دار الأمة للنشر والتوزيع.

ممدوح حقي. (1960). ديوان الأمير عبد القادر الجزائري. دمشق، سوريا : دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة و النشر.

هوارى حمادي. (جوان، 2014/2015). ابعاد التصوف عند الأمير. صفحة 107.

يعي بوعزيز. ((1983)). الامير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري. دار العربية للكتاب .